حضارة العرب وثقافتهم

في شعرائهم وفنونهم ومعارفهم

لقد مر بنا ان عصر العباسيين كان عصراً زاهراً فيه الادب والفن والعلوم، فكانت الشعراء من افراد تلك الامة يرقون رقيها في معارج الحضارة والعمران.

وفي قصة البدوي الذي قدم حاضرة عامرة فاكرمه صاحبها فمدحه ببيتين من الشعر اشارة بيّنة الى تأثير المحيط بافكار الرجال وفعل الحضارة بقرائح الشعراء.

قال العلامة سليمان البستاني في شرح الالياذة بهذا الصدد: لقد رتع الشعراء في زمن الدولة العباسية في ارجاء ذلك الملك الفسيح متربعين بعد شظف العيش على الطنافس الوثيرة في المنازل الانيقة امام الحدائق الغنّاء وخلفاؤهم يصعدون بالامة في سلم المدنية يحرصون على استثمار ذلك الفتح المبين فيدّخرون ما تلقوه

عمن تقدمهم ولا يألون جهداً في إحكامهِ واتقانه حتى بهروا الغرب بما تجمع لديهم من ذخائر السلف النفيسة ، فلا بدع وكل ذلك مشهود الشعراء ان تثقف اذهانهم وتتروض نفوسهم وتتسع مداركهم ويرقّ تصورهم ويمرحوا في روضٍ اريض يجولون فيه جولةً لم تتوفر اسبابها لسلفائهم .

حضارة العرب في فن الموسيقى

وعلم الفلك والفلسفة

الموسيقى : او فن التطريب هي احد الفنون الجميلة « وهي الشعر والرسم والنحت وهندسة البناء والموسيقى »، وكان للعرب استعداد فطري لهذا الفن لحساسة نفوسهم وشدة تأثرهم . وكان البدوي في جاهليتهِ يعرف من الموسيقى غناءَ الشعر وانشادَه يحدو بهِ وراء إبلهِ اثناء مسارحها. فلما اخذت الحضارة تنتشر بين قبائل العرب كانت آلات طربهم الطبول والمزامير تغني البنات عندهم على صوتها. ثم لما جاءَ الاسلام واستولت العرب على الممالك وصاروا الى نضارة العيش واقبل المغنون من الفرس والروم الى الحجاز وصاروا موالي للعرب غنّوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والقيثارات والمزامير وسمع العرب تلحينهم فلحّنوا عليها اشعارهم .

وما زالت صناعة الغناء تزداد اتقاناً ويزداد نبوغ المغنين كلما قربت الدولة من الترف والقصف حتى اصبحت علماً قائماً بنفسهِ فعمدوا حينئذٍ الى تدوينهِ وألّفوا فيه المؤلفات المسهبة

فضلاً عما استنبطوهُ من الالحان او اخترعوهُ من الآلات[1] . وصار للعرب مذاهب في الغناء خاصة بهم لاسيما في ايام بني العباس حيث كملت هذه الصناعة عند المغنين المشهورين كابرهيم ابن المهدي اخي الرشيد وابرهيم الموصلي وابنه اسحق الذي اصبح إمام المغنين وغيرهم . وعند المغنيات مثل جميلة وحبابة وسلامة وعقيلة وغيرهنّ .

وقد اتصلت عنهم ببلاد المغرب حيث اشتهر اهل اشبيلية بحب الغناء وفن التطريب . وجُمعت اغانٍ عديدة في كتاب « مجموع الاغاني والألحان من كلام اهل الاندلس » لكلٍّ منها لحن . وقد جمع المؤلف الالحان المتشابهة وسمّاها « نوبة » فبلغ عدد النوب ثلاث عشرة نوبة وهذه اسماؤها : الدَيل والمجنبة

---

١ ومن مخترعاتهم الموسيقية « القانون » الذي اخترعهُ ابو نصر الفارابي الفيلسوف ، فقد ذُكر عنه انه اصطنع آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها وتخالف انغامها باختلاف تركيبها ولكنها في كل حال غريبة في بابها .

ذكروا ان الفارابي حضر مجلس غناء لسيف الدولة ولم يكن احد من الحضور يعرفهُ ، فعابَ المغنين ، فسألهُ سيف الدولة هل يحسن الغناء ففتح خريطة كانت معهُ واستخرج تلك الآلة وركّبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس . ثم فكّها وركبها تركيباً آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس . ثم فكّها وغيّر تركيبها وضرب ضرباً آخر فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج .

والحسين والعراق والرمل المائية والرمل والغريب والزيدان والرصد والمزمومم والصيكه ونوبة المائية وجاركه . ولكلٍّ منها فروع . وتحت كل باب اغانٍ مختلفة الاوزان .

علم الفلك : قديم عند سائر الامم، اخذ اليونان مبادىء هذا العلم على الفينيقيين وقد توسع فيه العرب من عند انفسهم وكان لهم فيه عناية كبرى، فراجت بينهم صناعة التنجيم رواجاً عظيماً ادّى بهم الى إبطالها لانهم وجدوها مبنيّة على الوهم، غير ان معظمهم قد مالوا اخيراً بهذا العلم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار .

وكان للمسلمين حظٌّ وافر من معارفهم الفلكية، فقد جمعوا فيها مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية.

وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الافلاك والانواء والاعتدال الربيعي والخريفي، ويحسبون الكسوف والخسوف، ويؤلفون الازياج[1] ويقيسون العروض ويراقبون السيارات ويرتحلون الى الهند وفارس في طلب هذه المعارف ويتبحّرون في كتب الاوائل ويتممون ما نقص فيها .

وكان سبب اقبال العرب على العلوم والفنون والرغبة في

---

١ الازياج جمع زيج معرّب زيك بالفارسية وهو عند المنجمين كتاب تُعرف به احوال حركات الكواكب وسيرها وحسابها سنةً سنةً ، ويستخرج منه التقويم.

الفلسفة القديمة هو معرفة مستقبل احوالهم التي يعتقدون انها تتحصل لهم جيّداً من اتقان علم الفلك. لانهم كانوا يعتقدون في انواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات . فازدهر هذا العلم بينهم فأنشأوا له المدارس الكبرى والمراصد الفلكية المتقنة في بغداد والشام والقاهرة وفي طليطلة وقرطبة باسبانيا ، وقد اكّد لهم كل التأكيد الاطباء الذين استخدموهم منذ ظهور الاسلام من الروم والفرس وغيرهم الذين اقنعوهم بانهُ لا يتأتى لانسانٍ ان يكون طبيباً ما لم يكن منجماً . ولا منجماً حاذقاً الاّ اذا كان فيلسوفاً . وهذا ما حدا بالخلفاء العباسيين الى ترجمة كتاب « سند هند » الكبير للخليفة ابي جعفر العباسي . وهكذا المأمون الذي هو اول من ادخل العلوم المذكورة بين المسلمين ، فانه لم يتقن علماً من هذه العلوم الاّ علم الفلك الذي جنى منه فوائد جمة . وكانوا يستعملون آلات لرصد الافلاك كالآلة العربية الشهيرة « ذات السموت » والزيوج والكرة والاسطرلاب (ميزان النجوم) . وقد نبغ من علماء الفلك والنجوم جمهور خلفوا في هذا الفن مؤلفات نفيسة اشهرهم نابغة علم النجوم ابو الريحان محمد بن احمد البيروني . ثم البُوزجاني وابن رستم الكوهي وابو الحسين الصوفي وغيرهم كثير .

النهضة العلمية

لما عرف العرب قدر الكتب القديمة وفوائدها لرقي المجتمع اقبلوا على ترجمتها الى لسانهم حتى صارت عندهم من اعظم الغنائم التي يتحفون بها ملوكهم فينقلونها الى عواصم بلادهم .

وكانت بداءة هذه النهضة الحميدة في زمن الخليفة هارون الرشيد. فان هذا الخليفة ابدى في العلم رغبة زائدة لا سيما عندما استحضر الى بغداد الكتب القديمة التي كانت محفوظة بخزائن انقره عندما فتحها. فامر طبيبه يوحنا بن ماسويه ان يترجمها الى اللسان العربي، وكان وزير هذا الخليفة جعفر البرمكي واهل بيته يعتنون ايضاً بترجمتها اعتناءً زائداً .

قال بعض المؤلفين : ان هارون الرشيد كان لا يخرج الاّ في مئة من العلماء . فرفع منار المعارف في بلاده ، وقرّب اليه اهلها، ووضع لهم احكاماً حسنة كوجوب اقامة مكتب بجانب كل جامع ، فسرى العلم في مملكته وبدّل روح اهلها واستهلهم الى الحضارة فدُعي عصرهُ « العصر الذهبي » .

المكتبات الشهيرة

وجمع الكتب وترجمتها

ان الذي اشتهر بترجمة الكتب الاعجمية الى لغته العربيّة هو الخليفة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد. فان هذا الخليفة كان اكثر رغبةً ممن تقدمه في طلب الفلسفة. وكان يكرم العلماء واصحاب المعارف ويجمعهم في كل جهة ليزين بهم دار سلطنته، ويعتني بكل جهده في ترجمة الكتب اليونانية الى اللغة العربية، فابتنى لهذه الغاية داراً في بغداد سماها بيت الحكمة. وكان اكثر المشتغلين بنقل العلوم الدخيلة في ذلك العصر من غير المسلمين، فلما صارت تلك العلوم بالعربية اشتغل بها المسلمون ونبغ منهم الفلاسفة والاطباء والرياضيون وغيرهم.

قال بعض المؤلفين ان في ايام المأمون زهت العلوم واينعت حدائق المعارف، فبعث العلماء الى الاقطار القاصية وجمع كتب فلاسفة اليونان وكتب بطليموس الروماني في معرفة النجوم ككتاب المجسطي المشهور وترجمها ووزعها على اهل بلاده. وشغف بالعلم كل ايامه ولم يكن يجالس الا العلماء. وقد سرت

هذه الرغبة في تشييد الدور للمكتبات وجمع الكتب فيها الى الخلفاء الفاطميين في مصر فشيّدوا « دار الحكمة » في القاهرة .

وكانت دار الحكمة مكتبة عظيمة فخمة وناديا كبيراً للدرس والبحث والمطالعة والجدل والمناظرة ، انشأها الحاكم بامر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥هـ وفرشها بالطنافس وعلق على ابوابها الستور وعيّن لها الفراشين والنسّاخ واستجلب لها الكتب النفيسة من عواصم العالم الاسلامي وحبس لها الاوقاف واباح للشعب الدخول اليها في جميع الاوقات لتتم منها الفائدة . وروى الثقات ان عدد كتبها كان لا يقل عن مائة الف مجلد . امّا حكام الاندلس فقد احبوا المكتبات والكتب . وكان اشهرهم على الاطلاق في جمعها وترتيبها والبذل على استجلابها الخليفة الحكم بن الناصر لدين الله الذي مرّ بين ملوك الدولة الاموية في الاندلس .

فلما طما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية وكثرت المدارس وعظم الملك انتسخت الكتب وملئت بها الخزائن والقصور . وتنافس اهل الاقطار في ذلك . قال ابن خلدون : ان البلاد التي زخرت فيها بحار العلم هي بغداد وقرطبة والقاهرة والبصرة والكوفة .

المنطق وفلاسفة العرب

لقد اتبع العرب في طلبهم للعلوم القديمة مذاهب الفلاسفة فتفرغوا للعلوم المنطقية التي اخذوها من منطق ارسطاطاليس ولم يزيدوا عليه شيئاً ، واول من ترجمه الى العربية عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي الذي ترجم لابي جعفر المنصور العباسي الكتب الثلاثة التي لارسطاطاليس في المنطق ، وهو علم من العلوم المدونة ويسمّى بالميزان ايضاً ويُعرف بانه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن من الخطإ في الفكر ، ونسبته الى القلب كنسبة النحو الى اللسان والعروض الى النظم ونحو ذلك .

قال احد المؤلفين ان هذا العلم اشرق متلألئاً بعد ان تُرجمت الفلسفة عند المسلمين الاّ انهم اقتصروا اخيراً على مباديه حيث ضرب المثل عندهم « من تمنطق فقد تزندق » . وقد لخص ابو نصر الفارابي كتاب ارسطو في كتابه المسمّى بالثمانية وعلّق عليه شروحاً . ولخصه ايضاً ابن رشد تلخيصاً حسناً . ثم قام بين العرب عدد غفير من الفلاسفة اتبعوا فلسفة ارسطو في ما لا يمسّ منها اصول معتقدهم .

والخلاصة ان الثقة التي تمتع بها ارسطو في اوروبا الى اواسط القرن السادس عشر قد تزعزعت في بغداد قبل ان ينتصف القرن التاسع. والعرب لم يأخذوا بجميع المذاهب الفلسفية مرة واحدة بل كانوا يختارون من المذاهب كلها ، وكانوا اذا وجدوا مذهباً غامضاً او قاصراً جلوهُ بالتفسير والشرح واتمّوا ما فيه من القصور والنقصان. وهكذا دخلت هذه المذاهب الفلسفية اجمالاً في نسيج الثقافة العربيّة لا كما اتهموا العرب انهم استعاروا الفلسفة من اليونان.

حضارة العرب في علم الجغرافية

والهندسة والحساب والنبات والزراعة

الجغرافية : يقسم علم الجغرافية الى قسمين : جغرافية عامة شاملة كل اجزاء المملكة براً وبحراً ، وجغرافية خاصة تبحث عن بقعة معينة من الارض .

اسباب وضع الجغرافية عند العرب المسلمين

ان الاسباب التي دعت العرب المسلمين لوضع الجغرافية هي :

١ — الحج الى مكة ، وافتقارهم الى معرفة المنازل فيها والطُرُق المؤدية اليها .

٢ — افتقارهم الى معرفة الاماكن والمناطق التي كانوا يرحلون اليها في طلب العلوم .

٣ — افتقارهم الى معرفة طرق البلدان التي كانوا يجمعون منها الخراج والجزية واجتناء المقاطعات .

فهذه الاسباب حدت بهم الى تأليف الكتب الجغرافية . ولما

تُرجمت الجغرافية الى العربية اخذوا في تأليف الكتب على مثالها، ولم يكتفوا بذلك بل جابوا الاقطار وكتبوا ما شاهدوهُ. وصحّحوا كثيراً من مغالط بطليموس حتى اصبحوا يُحسبون من الطراز الاول بين الجغرافيين.

وعندما وسّع العرب فتوحاتهم وأنشأوا المستعمرات العربية في الهند والصين وجزر الارخبيل الهندي وجزيرة مالايا، وكثرت تجارتهم واسفارهم البحرية، كانوا يتجشمون العناء الكبير في ايجاد النجمة القطبية ليلًا ليهتدوا الى طريق امينة توصلهم الى ما يقصدون. فتوفقوا اخيراً بجهادهم المستمر الى اختراع البوصلة البحرية. فكانوا من المجلّين في اكتشاف الشواطىء الافريقية واخترقت اساطيلهم التجارية البحار فنقلت البضائع من ثغور البحر المتوسط الى اسبانيا وفرنسا وايطاليا. وكانت البصرة في اوج الامبراطورية العربية من اعظم الموانىء التي كانت تصدر البضائع الى المشرق والمغرب.

قال ملطبرون العالم الجغرافي الفرنسي ان العرب جازوا حدود الارض المعروفة وتوغلوا في اسيّا وافريقية. وان الخلفاء في صدر الاسلام امروا أُمراء جيوشهم وعمالهم ان يرسم كلٌّ منهم خطط البلاد التي افتتحها واستولى عليها. وقال ايضاً ان العرب استكشفوا استكشافات في بحري الهند والصين وظهر منهم

راصدان بذلا وسعهما في التخطيط وهما الواقدي[1] وابو زيد[2] فجابا ابعد بلاد اسيّا وخططاها من سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) الى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) .

ويوجد كثير من العرب الجغرافيين غير الذين ذكرهم ملطبرون فضلاً عن السيّاح الفلكيين الذين ساحوا الى افريقية والهند والصين وروسيا وغيرها كالبيروني وابن بطوطة والقرطبي المعروف بالاسد الافريقي . والذين كتبوا عن السياسة وعن صادرات البلدان وواردانها وعدد اهلها ومُدُنها وقراها وسائر اوصافها .

الخرائط الجغرافية عند العرب

رسم الخرائط من الفنون القديمة . اما العرب فبدأوا برسم الخرائط في صدر الدولة العباسية بعد ترجمة كتب الفلك والجغرافية ، وكانوا يجعلون اساس رسومهم قياس العرض والطول . واول من رسم منهم خريطة الارض على هذا الاساس محمد بن موسى المعروف بالخوارزمي في زمن المأمون ، فانه عيّن مواقع المدن والبحور بالدرجات الجغرافية المبنيّة على علم الفلك . فلما اخذوا بالرحلة

---

١ الواقدي هو محمد بن عمر الواقدي مولى بني هاشم وصاحب التصانيف في المغازي وغيرها .

٢ ابو زيد هو عمر بن شبة صاحب كتاب تاريخ البصرة .

تركوا المقاييس وصاروا يرسمون الخرائط بلا قياس كما فعل ابو زيد البلخي في اوائل القرن الرابع للهجرة وابن حوقل والاصطخري والمقدسي في اواسطه ، فانهم كانوا يرون مشقة في تعيين الاماكن بالاقيسة فاكتفوا بتعيين مواقع البلاد بالنظر الى الجهات الاربع بدون تقدير الابعاد بينها . غير أن الشريف الادريسي في الخريطة التي رسمها للملك روجر الثاني صاحب صقلّية قد عيّن فيها الابعاد بين الاماكن . ومن بعده اخذ العرب يجرون على طريقته في خرائطهم .

نشاط العرب في اسفارهم ورحلاتهم

ان البيئة الصحراوية التي نشأ فيها العرب أورثت طبائعهم حب الاهتمام والاعتناء بالاسفار والرحلات . فالعربي بفطرته الاصلية ميّالٌ الى التنقل شغوفٌ بالارتحال والتجوال (ولعلّ لفظة عرب محرّفة عن كلمة « عبر » وذلك دلالة على العبور والتنقل وعدم الاستقرار في مكان خاص) . ولقد بدت طلائع نشاطهم في الاسفار منذ اوائل القرن العاشر للميلاد . فالرجال الذين تركوا اوطانهم وساحوا في الارض قد ابقوا بعدهم اسفاراً جليلة دوّنوا فيها ما شاهدوهُ من احوال الامم وتقاليدها وعاداتها المختلفة . وكان نشاطهم وليد ظروفٍ سياسية خاصة رافقت حياة العرب في ذلك العصر .

ولما كان العالم العربي الممتد في اقطار آسيا وافريقية وبعض اوروبا يموج بالاجناس والالوان والعصبيات كان همّ الخلفاء او الولاة المسلمين ان يوجدوا رابطة تجمع شمل هذه العناصر المتباعدة، فرأوا في الاسفار خير واسطة لربط تلك الاجزاء ومعرفة احوال تلك المناطق . فهذا الشعور برغبة الاتصال بالممالك البعيدة كان

من جملة البواعث التي حرّكت في العرب الرغبة بالاسفار من حين الى آخر .

الهندسة : اشتغل العرب بعلم الهندسة بعد ان طبقوه على المنطق وترجموا كتب اقليدس وارخميدس وابولونيوس . وكان احد الائمة المشاهير فيه ابو الوفاء البوزجاني الحاسب المشهور . وله فيه استخراجات غريبة لم يُسبق بها . وان استعمال الخطّان « المعروف بين العامة بالبندول او الرقّاص » كان معروفاً عند العرب لانهم هم الذين بدأوا باستعمال الساعات الدقاقة الدالة على اقسام الزمن . ومن ذلك يستبين ان جربرت الراهب الفرنسي الذي عمل اول ساعة ذات رقّاص وأدخلها الى اوروبا اخذ هذه المعرفة عنهم فضلاً عما اكتشفوهُ من القوانين لمعرفة ثقل الاجسام مائعها وجامدها .

الحساب والجبر : كان للعرب في علم الحساب شأن عظيم . قيل ان اول من وضع علم الحساب هو ابو الفرج قدامة الكاتب البغدادي وبه يضرب المثل في البلاغة فيقال : ابلغ من قدامة . لكن الصحيح ان العرب اخذوا طريقة الارقام الهندية عن الهنديين ولهم فيها اتعاب جزيلة واعمال حسنة . وهم الذين ادخلوا الى اوروبا الرقوم الحسابية . فالافرنج يسمونها ارقاماً عربية لانهم اخذوها عن العرب . والعرب يسمونها ارقاماً هندية لانهم نقلوها عن

الهنود . واول من تناولها من الهنود ابو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي .

اما الجبر فللعرب فضل كبير في وضعه ، ولهم اليد الطولى في تأليفه ، وان واضعه ابو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي الذي جمع بين ما عثر عليه من الاصول الجبرية عند اليونان والهنود والفرس فاستخرج منه الجبر العربي . قال غوستاف لابون: كان علم الحساب معروفاً ومنتشراً بين العرب الذين اتقنوا فيه الجبر والهندسة . وكان علم الجبر اكثر انتشاراً في ايام المأمون في اوائل الجيل التاسع ، فقد كلف هذا الخليفة محمد بن موسى وَضْعَ قواعد الجبر العامة . ولما نهض الافرنج في تمدنهم الحديث اخذوا الجبر عن العرب .

وادخل ابن الهيثم المصري في الجبر والحساب اساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي ، وعدّل في أوضاع الجبريين والفاظهم .

علم النبات : للعرب القدح المعلى في درس علم النبات والتأليف فيه . وقد اخذوا هذا العلم في النهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهند . وقام منهم من نبغ في هذا العلم كابن البيطار الطبيب النباتي الذي سافر الى بلاد اليونان والى اقصى بلاد الروم والقى جماعة يعانون هذا

الفن واخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه في مواضعه ، واجتمع في المغرب وغيره بكثير من علماء النبات وعاين منابته بنفسه ، وذهب الى الشام وجاء الديار المصرية ودرس نباتاتها ، وبعد طول ذلك الاختبار الف كتاباً في النبات هو فريد في بابه ، وكان عليه معوّل اهل اوروبا في نهضتهم الاخيرة في علم النبات .

وابي زكريا الاشبيلي الذي الف في الحراثة كتاباً جليلاً . والاندلسيين الذين كانوا يعرفون خواص الاتربة ويحسنون الحراثة والغرس والسقي وبذلك جعلوا الاندلس جنة وسط قفار اوروبا ، وعلموا الاهالي صناعة رفع المياه من سطحها الاصلي ونقلها الى الاعلى بواسطة النواعير .

ومن المبرزين ايضاً في علم النبات رشيد الدين بن الصوري صاحب كتاب الادوية المفردة وكان كثير البحث والتدقيق يخرج الى لبنان وسوريا ويدرس الحشائش في منابتها ، وغيرهم كثير ممن الّفوا وكتبوا في الزراعة والحيوان كالقزويني والدميري وابن ابي زاخر .

علم الزراعة : عُني العرب كثيراً بشؤون الزراعة . وعمدوا الى استثمار النواحي البحرية من بلادهم حيث الاتربة الخصبة والمياه الوافرة . ومن العلوم التي نضجت في العصر العباسي الثاني واستفاد منها اهل الاجيال المتأخرة علم الزراعة او الفلاحة وهو

في الاصل منقول عن الكلدانية نقله احمد بن علي الكلداني المعروف بابن وحشية في كتاب سمّاهُ «الفلاحة النبطية» املاهُ على علي بن محمد بن الزيات وجعلهُ في خمسة اجزاء منها نسخ خطية في برلين وليدن واكسفورد والمتحف البريطاني وباريس والجزائر والمكتبة الخديوية. ومنه مختصر الفلاحة للزيتوني. وكتاب الفلاحة اليونانية نقلهُ عن السريانية قسطا بن لوقا الطبيب النصراني البعلبكي.

الخلاصة : ان اوروبا ظلت تتغذى من الثقافة العربية وتنعم بآثرها احقاباً متوالية الى ان ظهر بينهم في اوائل القرن السادس عشر مؤلفون في الزراعة وانواعها حتى صار لكل فرع منها اخصائيون بارعون في الزراعة العامة والزراعة الخاصة.

حضارتهم في علم الطب والصيدلة

والكيمياء والمدارس الراقية

نشأة الطب : نشأ الطب في اليونان الذين كانوا يعالجون مرضاهم بالكهانـــة وينسبون الامراض الى اعمال الشياطين والعلاجات الى اعمال الآلهة . وكان فلاسفتهم يتكلمون في الطب باعتبار انهُ فرع من الطب الطبيعي . واول من رتّب الطب فيهم وبوّبهُ وبناهُ على أسس صحيحة ابقراط ولذلك سموهُ « ابا الطب » . فقد سافر هذا الفيلسوف الطبيب الى سوريا واطلع على طب البابليين والمصريين فاضافه الى طب اليونان والّف فيه الكتب ، وكان يفصد ويحجم ويكوي ويحقن ويشخّص الامراض بالسمّاعة ويصف المسهلات النباتية والمعدنية . واشتغل في هذا العلم بعدهُ ارسطو الفيلسوف وغيره . وازدهر الطب وكان لهُ شأن كبير في مدرسة الاسكندرية الشهيرة على عهد البطالسة . ثم انتهى الى جالينوس في اواخر القرن الثاني للميلاد فاصبحت كتبهُ معوّل الناس فيه .

الطب عند العرب : لقد كان للعرب في زمن جاهليتهم معارف

في الطب خشنة اما عملاً بالاستقراء والتجربة واما اخذاً عن السريان والفرس والهنود . وكان من اشهر اطبائهم لقمان بن عاد ورجل من تيم الرباب يقال لهُ ابن حِذْيَم والحارث بن كندة الذي اخذ الطب عن اهل جنديسابور في الجاهلية وابن ابي رومية التميمي ونَضْر بن الحارث بن قُصَيّ .

ثم لما جاء الاسلام كثر المشتغلون فيه وخدموهُ وتكاثر الاطباء ، فبنى الوليد بن عبد الملك « المارستان » ودور المرضى وجعل فيها الاطباء واجرى عليهم النفقات والارزاق . ومن ثم تُرك التطبيب عند اصحاب الطب الخشن من العرب وبحث عن اصحاب الثقافة في الطب الحديث .

فعين الخلفاء الامويون ثم العباسيون من بعدهم الاطباء البارعين من اليهود والنصارى كموريانوس الراهب الرومي الذي علّم صناعة الطب لابي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان واستفانوس وماسرجويه الطبيب اليهودي البصري وجاورجيوس ابن بختيشوع الجنديسابوري وابنه بختيشوع طبيب الخليفة هارون الرشيد ، ويوحنا بن ماسويه صاحب المؤلفات الشهيرة وتلميذه ابي زيد حنين بن اسحق العبادي وابرهيم بن ثابت بن قرّة الحرّاني ، وابي الحسن هبة الله بن صاعد ويُعرف بابن التلميذ النصراني ، ولم يكن مثلهُ بعد ابقراط وجالينوس ، ولهُ

كتاب في الاقرباذين وشرح على كليات ابن سينا، وكان اديباً شاعراً ظريف المنادمة حسن المجالسة ، ومن شعره : لغز في الميزان وهو :

ما واحدٌ مختلفُ الاسماءِ
يعدلُ في الارض وفي السماءِ

يحكمُ بالقسطِ بلا رياءِ
اعمى يُري الارشادَ كلَّ راءِ

اخرس لا من علّةٍ وداءِ
يغني عن التصريح بالاسماءِ

يُجيبُ ان ناداهُ ذو امتراءِ
بالرفع والخفض على النداءِ

يُفصحُ ان عُلّق في الهواءِ

(قولهُ مختلف الاسماء يعني بذلك ميزان الشمس وهو الاسطرلاب وسائر آلات الرصد . وهو معنى قولهِ يحكمُ في الارض والسماء . وميزان الكلام وهو النحو وميزان الشعر العروض وميزان المعاني المنطق . والميزان المعتاد والمكيال والذراع) .

وقال عنه ابن خلكان في ترجمته : كان هبة الله ابقراط عصره وجالينوس زمانه ختم به الطب ولم يكن في الماضين من بلغ مداه فيه ، عمّر طويلًا وعاش نبيلًا بهيّ المنظر عالي الهمة مصيب الفكر حازم الرأي شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم .

وكان المسلمون في اكثر هذه الحقبة من الزمن مشتغلين بدرس الفلسفة وباقي العلوم التي ادخلها بينهم الخلفاء العباسيون بواسطة الاطباء الى ان ظهر بينهم اطباء بلغوا درجة عالية في هذا الفن يحسبون الآن كحلقة تربط سلسلة هذا الفن بين اليونانيين والافرنج .

وكان اول من اشتهر منهم في الطب ابو خالد يزيد بن معاوية الاموي الذي كان اعلم قريش بفنون العلم اخذ صنعة الطب عن موريانوس الراهب الرومي وله فيها تآليف قيّمة .

واحمد بن ابرهيم طبيب الخليفة يزيد بن عبد الملك ، وعبدالله ابن المقفع ، والشيخ ابو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي توغل في العلوم الطبيعية وصار رئيس الاطباء في بيت الشفاء ببغداد بعد ان دبّر مارستان الريّ ، وهو صاحب كتاب « الحاوي » في الطب المشتمل على ثلاثين مجلداً اخذها جالينوس اليوناني عن آثار دائرة من كلام ابقراط الذي هو اول من كتب في صناعة الطب

بعد ان كانت سراً مكتوماً بين بني اقليميوس لا يبوحون بها لاحد.

والشيخ الرئيس والفيلسوف الطبيب ابن سينا ارسطو الاسلام وابقراطه صاحب كتاب « القانون » الشهير الذي عليه وعلى كتاب الحاوي للرازي المذكور كان اكثر معوّل العالم الطبي في التمدن الاسلامي في نهضة اوروبا قبيل التمدن الحديث. ولذلك يقال: كان الطب معدوماً فاحياه جالينوس، وكان متفرقاً فجمعه الرازي، وكان ناقصاً فكمله ابن سينا البخاري. وابو القاسم الزهراوي طبيب اندلسي الف في الطب تآليف مفيدة ترجمت الى اللاتينية وطبعت في اكسفورد والبندقية.

وابو علي يحيى بن حزلة الطبيب صاحب كتاب المنهاج المشتمل على اسماء الحشائش والعقاقير والادوية وغير ذلك.

والامام فخر الدين الرازي صاحب التصانيف المعتبرة في فنون عديدة منها في الطب شرح الكليات « للقانون » وشرح الاشارات لابن سينا. وصنّف في الفراسة. ومن قوله في الشعر:

المرءُ ما دام حيّاً يُستهان به
ويعظم الرزءُ فيه حين يُفتقدُ

وظهر غير هؤلاء من الاطباء الذين بلغوا درجة عالية في

هذا الفن وقد اتبعوا فيه ابقراط وجالينوس . وكان لحكام الاندلس فضل على اوروبا في الطب لا يُنكر ، فان مدرسة « ساترنو » لولاهم لم تقم ولا امتد هذا الفن بين اهلها .

الصيدلة : كان للمسلمين فضلٌ كبير على الصيدلة والكيمياء والنبات التي فاقوا غيرهم بها ، بدأوا بذلك في صدر الدولة العباسية .

وكان حكام الاندلس يعتنون بادارة الصيدليات فيفحصون ادويتها ازالةً للغش ويسعرونها رفقاً بالفقير . وقد عني الافرنج بدرس تاريخ الصيدلة فتحققوا ان العرب هم واضعو أُسس هذا الفن . وهم اول من اشتغل في تقطير الادوية والعقاقير فضلاً عما استنبطوهُ من الادوية الجديدة . وانهم اول من ألَّف الاقرباذين .

وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان وكاكين الصيادلة على اقرباذين ألَّفه سابور بن سهل حتى ظهر اقرباذين امين الدولة ابن التلميذ . وهم اول من انشأ حوانيت الصيدلة . ومن اقرب الشواهد على ذلك اسماء العقاقير التي اخذها الافرنج عن العرب ولا تزال عندهم باسمائها العربية او الفارسية او الهندية كما اخذوها عن العربية .

وممن اشتهروا بفن الصيدلة ابو قريش عيسى الصيدلاني . فهذا كان في بغداد في عصر الخليفة المهدي ، ولم يكن ماهراً في صناعة الطب كالصيدلة ، انما نذكر لهُ خبراً لطيفاً قد جنى من

ورائه خيراً ومالاً . قيل انه كان صيدلانياً ضعيف الحال جداً ، فتشكت الخيزران حظيّة المهدي وكانت من مولّدات المدينة ، فتقدمت الى جاريتها بان تخرج القارورة الى طبيب غريب لا يعرفها ، وكان ابو قريش بالقرب من القصر الذي للمهدي ، فلما وقع نظر الجارية عليه ارتهُ القارورة فقال لها : لمن هذا الماء؟ فقالت : لامرأة ضعيفة . فقال : لا بل لملكة جليلة الشأن وهي حبلى بملك . وكان هذا القول منه على سبيل الرزق . فانصرفت الجارية من عندهِ واخبرت الخيزران بما سمعت منه ، ففرحت بذلك فرحاً شديداً وقالت : ينبغي ان تضعي علامة على دكانهِ حتى اذا صح قولهُ اتخذناهُ طبيباً لنا . ثم بعد مدة ظهر الحبل وفرح بهِ المهدي فرحاً شديداً فانفذت الخيزران الى ابي قريش خلعتين فاخرتين وثلاث مئة دينار وقالت : استعن بهذا على امرك فان صحّ ما قلتهُ استصحبناك . فتعجب ابو قريش من ذلك وقال : هذا من عند الله عزّ وجلّ لاني ما قلتهُ للجارية الاّ وقد كان هاجساً من غير اصل . ولما ولدت الخيزران موسى الهادي سرّ المهدي سروراً عظيماً وحدثتهُ الخيزران الحديث فاستدعى ابا قريش وخاطبهُ فلم يجد عندهُ علماً بالصناعة الا شيئاً يسيراً من امر الصيدلة ومع ذلك اتخذهُ طبيباً لما جرى منه واستصحبهُ واكرمهُ .

الكيمياء : ان العرب هم اول من استحضر المياه والزيوت

باستقطار العقاقير وصناعة التخمير والتصعيد التي اخذوها عن التتر. فهم الذين اسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم واستحضاراتهم. وان القوانين لثقل الاجسام مائعها وجامدها هي من اكتشافاتهم. واول من اشتغل في نقل الكيمياء الى العربية هو خالد بن الوليد نقلها عن مدرسة الاسكندرية.

وعنه اخذ جعفر الصادق وبعده جابر بن حيان ثم الكندي فابو بكر الرازي وغيرهم فاكتشفوا كثيراً من المركّبات الكيماويّة التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة. وقد ذكر محققو الافرنج ان العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة «الحامض النتريك» وزيت الزاج «الحامض الكبريتي[1]» وماء الذهب «الحامض النترو هيدروكلوريك» واكتشفوا البوتاس وروح النشادر وملحه وحجر جهنم «نترات الفضة» والسليماني «كلوريد الزئبق» والراسب الاحمر «اكسيد الزئبق» وملح الطرطير وملح البارود «نترات البوتاس» والزاج الاخضر «كبريتات الحديد» والكحول والقلي والزرنيخ والبورق وغير ذلك، على انه

---

١ اكتشف زيت الزاج والكحول ابو بكر الرازي. استحضر الاول باستقطار كبريتات الحديد واسمها الزاج الاخضر، فلما استقطارها خرج منها سائل سماه زيت الزاج. واما الكحول فكان يستحضرها باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة.

يُستدل على وجود بعض المركبات الكيماوية في ايامهم مما لم نرَ لهُ مثيلاً في تاريخ الكيمياء قبل اواخر القرن الماضي، فقد اشار ابن الاثير الى ادوية استخدمها العرب في واقعة الزنج سنة ٢٦٩هـ اذا طلي بها الخشب امتنع احتراقه. ومما يُعد من قبيل الكيمياء ايضاً البارود، فقد ترجح بالبحث انهم هم الذين ركّبوهُ. وهم اول من استحضر السوائل والزيوت بالتقطير والترشيح والتصعيد والجوامد بالتبلور والتذويب. واول من استعمل السكر في الادوية وكان غيرهم يستعمل العسل. وهم ايضاً اول من جعل الكيمياء علماً باصول واول من كتب الوصفات على قاعدة. وكان لهم في الطب مدارس راقية.

مدارس العرب: لما نزعت نفوس العرب لاحراز المعارف انشأوا المدارس العديدة ودور الكتب لنشر الثقافة في جميع الاقطار العربية وجمعوا اليها العلماء. وكان اشهر مدارسهم ببغداد والبصرة وبخارى في الشرق، والقاهرة بمصر، ومراكش وفاس ببلاد البربر. وكان بمدينة قرطبة وحدها من بلاد الاندلس ثمانون مدرسة، وبالقاهرة وحدها عشرون مدرسة منها الجامع الازهر الذي هو الآن مدرسة الاسلام العظمى بمصر، ومدرسة دار الحكمة التي حُملت اليها الكتب من الخزائن والقصور ودخل اليها الناس وجلس فيها الفقهاء والمنجمون والنحاة واصحاب اللغة والاطباء.

اما مدارس الاندلسيين ومكتبة الخلفاء في قرطبة فقد كانت على غاية من الاتقان . فقصدها اهل اوروبا في القرون الوسطى لارتشاف العلم من مناهلها الغزيرة ثم تزودوهُ منها الى بلادهم .

ثم لما عرف ملوك الافرنج قيمة معارف العرب وما هم عليه من التمدن والرقي بواسطة الحروب الصليبية التي اثاروها عليهم اخذوا في اقتفاء آثارهم واتقان دراسة لغتهم ، وامروا بترجمة كتبهم الى لغاتهم الاوروبية . والخلاصة ان الافرنج نقلوا عن العرب ما نقلهُ العرب عن غيرهم واستنبطوهُ هم انفسهم من علوم الفلسفة والهيئة والطبيعيات والرياضيات والكيمياء والطب والصيدلة والجغرافية والموسيقى والزراعة والفراسة . واخذوا عنهم عمل الورق والبارود والسكر والخزف وتركيب الادوية ونسج كثير من الاقمشة . وادخلوا دود القز على بلادهم وكثيراً من الحبوب والاشجار كالارز وقصب السكر والزعفران والقطن والرمان والتين . ونقلوا عنهم دبغ الاديم وتجفيفه . فالى العرب اذاً يرجع الفضل بحفظ تراث الاولين من علم وخبرة انتقلا بسعيهم الى اقطار الغرب . وهكذا لم يبقَ عند العرب من تلك المكاتب التي جمعوها والمدارس التي شيدوها حتى ولا ذكرها .

فكأن دولة علومهم كانت مرتبطة بدولهم السياسية التي منذ اضاعوها اضاعوا كل هذه العلوم والمعارف معها ، اذ انهُ لم تسقط

لهم دولة من دولهم سواء كانت في المغرب او في المشرق الا وهدمت جيوش اعدائهم مدارسها واشعلوا نيران حقدهم في مكاتبها .

ان هذا الطور من الاقبال على ترجمة فلاسفة العرب في اوروبا والاخذ عنهم قد مُني باهمال هذه الدراسات مدة، ثم بنهضتها وتشجيعها، والسبب في ذلك هو :

١ — وهو الاهم، تدهور الثقافة والحضارة العربية اثر غزوات هولاكو خان وجيوشه من المغول وما تبع ذلك من خراب اجمل اصقاع العالم الاسلامي .

٢ — فقدان الاندلس وانحلال قوة العرب وعلمهم في المغرب .

٣ — ما كانت عليه حالة اوروبا واقطار البحر الابيض المتوسط من اضطراب وعدم استقرار، الامر الذي حال دون اي اتصال ثقافي او تجاري مستمر بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي .

٤ — فتح الاتراك القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م وما ادّى اليه هذا الفتح من ذهاب كثير من علماء تلك المدينة الى اوروبا الغربيّة واحياء الدراسة اليونانية القديمة .

ولكن ما اشرق القرن السادس عشر حتى تبدلت الاحوال واقبلوا على تشجيع الدراسات العربية في اوروبا واستؤنفت التجارة بين الغرب والشرق على منوالٍ اعظم مما كانت عليه قبلاً .

ووجد التجار الاوروبيون انهم اينما سخروا عباب البحر مضطرون الى التعامل مع التجار العرب .

قال وليم بدول في سنة ١٦١٢ : ان اللغة العربية هي اللغة الوحيدة للدين واللغة الاساسية للسياسة والعمل من الجزائر الى بحار الصين ، ولذلك حرّض معاصريه على دراستها . وان انشاء شركة المتاجرة مع السواحل الشرقية للبحر الابيض جلب التجار الاوروبيين الى سواحل سوريا ومدنها حيث استكشفوا حضارة عربية لا تزال مزدهرة .

وقال العلامة ا.ج. اربري الانكليزي :

اذا اعتبرنا ما بين انكلترا والعالم العربي من العلاقات الودية الطويلة في التجارة والثقافة ندرك ان الادب الانكليزي مرآة ينعكس عليها اهتمام الانكليز بالشؤون العربية واعجابهم بحضارة العرب ومدنيتهم . واذا درسنا بعناية العناصر العربية في الادب الانكليزي يبدو لنا بجلاء مبلغ تأثير هذه العناصر ومقدار ما كان لها من إلمام مشهور وفهم عميق واتساع في الافق .

حضارة العرب في اخلاقهم

والقابهم وامثالهم

اخلاق العرب وعاداتهم : انهُ كما كان في اخلاق العرب وعاداتهم مساوىء قوّتها بداوتهم كذلك كان في نفوسهم مكارم ومحاسن احيتها حضارتهم . والسبب في ذلك هو انهم في بدء جاهليتهم كانوا يسكنون في اراضٍ عقيمة مجدبة وليس لهم اذ ذاك حرفة يتعيشون منها الا النهب والسلب ، فكان لا يمكن للجواد منهم ان يتصدق بشيءٍ اجل مما بذل نفسه لاجل الحصول عليه كحصة من طعامه وشرابهِ او بخلقٍ بالٍ من كسوتهِ ، وكان متى فعل ذلك حق لهُ ان يعتبر نفسهُ انه عمل عملاً عظيماً يفوق كل ما يمكن للانسان ان يجود به .

وما كانت اخلاقهم وعاداتهم في الكرم والجود والحلم والامانة والوفاء وحسن الجوار والضيافة والبر بالوالدين سوى مظهر من مظاهر حضارتهم التي ارتقوا اليها وعُرفوا بها .

ولما جاء الاسلام انتقلت الامة العربية من طور البداوة الى طور الحضارة ، ومن ضيق العيش الى سعتهِ ، فادّى هذا الانتقال

والتغيير الى بذل الاموال الطائلة والتكرم بما فُطرت عليه نفوسهم من التنافس في البذل والعطاء والمباهاة ليس فقط بمقادير عولهم المفرط بل بضروبه وظروفه لا سيما عندما سادوا البلدان والقرى وامتلكوا المدن والضياع الواسعة فارتقوا حينئذ الى اقصى درجات العمران والحضارة، وبلغ غناهم خطة الافراط نظير بني امية والعباسيين ونوابهم الذين استقلوا بخيرات مملكتهم الكبيرة، وكانوا يهبون الولايات ويقطعون خدامهم ويتصرفون بالبدر من الاموال ولا يرون ذلك شيئاً .

وقد كانت اعطيـــة بني امية في بدء الدولة الاسلامية الابل اخذاً بمذاهب العرب وبداوتهم، فاذا حبوا حباءً جعلوا في اسنمة هذه الابل ريش نعام ليُعرف انها حباء الملوك. ثم صارت جوائز بني العباس والعبيديين من بعدهم احمال المال وتخوت الثياب واعداد الخيل بمواكبها . وهكذا كان شأن كتامة مع الاغالبة بافريقية ، وكذا مع بني طغج بمصر، وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالاندلس ، وشأن زناتة مع الموحدين، لان الحضارة كانت تنتقل من الدول السالفة الى الدول الخالفة، فانتقلت حضارة الفرس الى بني امية والعباسيين ، وانتقلت حضارة بني أمية بالاندلس الى ملوك الغرب من الموحدين وزناتة، وانتقلت حضارة بني العباس الى الديلم ثم الى الترك ثم الى السلجوقية ثم الى الترك المماليك

بمصر والتتر بالعراقين على ما رواه ابن خلدون .

ألقابهم : ومما يدل على حضارتهم كثرة القابهم التي كانوا يطلقونها على بعضهم تعظيماً لقدر الرجل ومباهاةً وفخراً لهُ او للذم والاحتقار. لان الالقاب كانت عندهم على ثلاثة انواع: لقب تشريف ولقب تعريف ولقب تسخيف ، وهذا الثالث قد نهي عنه . وكانوا يلقبون من يملكون في اليمن وهم حمير وحضرموت « تبّعاً » كما كانوا يلقبون ملوك الحيرة « بالنعامنة او النعمان » وملوك الخزر « بالبلك » وملوك الصين « بالبُغبُور او الفُغفُور » وملوك فرغانة « بالاخشيد » وملك فارس « كسرى » وملك الترك « خاقاناً » وملك الروم « قيصراً » وملك الشام « هرقلاً » وملك الحبشة « نجاشياً » وملك مصر « عزيزاً » والقبط « فرعوناً »

وكانوا يسمون قواد البعوث « بالامراء » ، وسمت الجاهلية صاحب الشريعة الاسلامية « امير مكة وامير الحجاز » ، ثم تلقّب خليفته ابو بكر « بالخليفة » وتلقب الخليفة عمر بعده « بامير المؤمنين » وتوارث هذا اللقب الخلفاء من بعده فصار ذلك علَماً لهم .

وكانت الشيعة تخصُّ عليّاً ومن يتولى الخلافة بعدهُ بلقب « الامام » الى ان استحدث الخلفاء العباسيّون الاعلام حجاباً لاسمائهم فتلقبوا بالسفّاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد الى

آخر الدولة .

فاقتفى اثرهم في ذلك العبيديون بافريقية ومصر والامويون في بلاد الاندلس حيث تسمّى عبد الرحمن الآخر بامير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله .

وكان الخلفاء يلقبون الملوك الذين تحت رئاستهم بالقاب تشريفية مثل شرف الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ونظام الملك وذخيرة الملك ، ويخاطبونهم في المراسيم التي يبعثون بها اليهم بالجناب الرفيع الخاقاني او الجناب العالي الشاهستاني . واما السلاطين فكانوا يكتبون في الامضاء على معروضاتهم للخلفاء خادمك المطواع فلان، او عبدك فلان، والخطاب بعد ذلك سيدنا ومولانا امير المؤمنين وامام المسلمين وخليفة رب العالمين قدوة المشارق والمغارب المنيف على الذروة العليا ابن لؤي بن غالب.

وهكذا بعد الاسلام ايضاً، فان ابا بكر لُقب بالصدّيق لشدة صدقه . ولقب عُمر بالفاروق لفرقه بين الحق والباطل . ولقب عثمان بن عفّان بذي النورين لانه تزوج ببنتي صاحب الشريعة الاسلامية . ولقب علي بن ابي طالب حيدرة، لقبته امه بذلك، ومنه الحديث « انا مدينة العلم وحيدرة بابها » .

ولقب عبد الملك بن مروان « برشح الحجر » و « ابي ريان » لبخله وبخره .

ولقب الفضل بن سهل بذي الرئاستين لانهُ دبّر أمرَ السيف والقلم يعني رئاسة الجيوش ورئاسة الدواوين. ولقب عبد الله بن طلحة بطلحة الخير وطلحة الفياض وطلحة الطلحات لسخائهِ .

ودعي عكرمة بن ربعي « بالفياض» ايضاً لكرمهِ وجودهِ. ولقب عبد الله بن عباس «بالحبر » لعلمهِ . ونحو ذلك . وقلّ من وجد في الجاهلية والاسلام وليس لهُ لقب .

حضارة العرب في الامثال السائرة

ان للامثال فائدة لا تُنكر لصدورها عن مختلف طبقات الشعب . فكما كان الشعر عند العرب ديواناً لاخبارهم ومرآةً لاخلاقهم كانت الامثال التي يضربونها في كل عصر وقطر عنواناً لآدابهم ودليلاً ساطعاً على نبوغهم وحضارتهم .

فالمثل في الاصل هو جملة مقتطعة من القول في واقعة حال تُنقل عما وردت فيهِ الى مشابهِ من غير تغيير . وتمثل البلاغة والايجاز وقوة التعبير . وفائدتها معرفة احوال العرب واخلاقهم .

وبما ان هذه الامثال التي طالما كانوا يحتاجون اليها في تحقيق الفاظ لغتهم هي من حِكَمهم في الجاهلية والاسلام ، وعظات بالغة من ثمار عقولهم واختبارهم ، ترى كثيرةً يضيق عن استيعابها هذا التأليف الموجز ، رأينا ان نثبت منها من كل حرف من حروف الهجاء مثلَين يكونان اكثر اشتهاراً واوقع حالةً ونتيجة ختامٍ لبحثنا هذا عن الحضارة العربية المقصودة .

۞

١ — « إنَّ وَرَاءَ الأَكَمَةِ ما وَرَاءَهَا »

اصله : انَّ أُمَّةً واعدت صديقها ان تأتيهُ وراء الاكمة

اذا فرغت من مهنة اهلها، فشغلوها بالعمل فقالت: حبستموني وان وراء الاكمة ما وراءها .

يُضرب : لمن يفشي على نفسه امراً مستوراً .

٢ — « إيّاكِ أعْني واسمَعِي يا جَارَه »

اصله : مرّ سهل بن مالك الفَزَاريّ بحيّ حارثة بن لأم الطائي فلم يرَهُ . وقد رأى اختهُ اجمل امرأة وكانت عقيلة قومها، فعلق بها فقال يعرّض بذلك :

يا اختَ خيرِ البدوِ والحَضَاره
كيف تَرَيْنَ في فتى فَزَاره

اصبحَ يهوى حُرّةً مِعْطَارَه
اياكِ اعني واسمعي يا جارهْ

فلما سمعت ذلك عرفت انه يعنيها فقالت : ما ذا بقول ذي عقلٍ اريب ولا رأيٍ مصيب، فأقم ما اقمت مكرماً ثم ارتحل متى شئت مسلماً . واجابتهُ بقولها :

اني اقول يا فتى فَزَاره
لا ابتغي الزوجَ ولا الدّعارَهْ

ولا قرانَ اهـل هذي الجاره
فارحلْ الى اهلك باستخارهْ

فاستحيا وقال : ما اردتُ منكراً واسوءَ تاهُ . قالت : صدقت . كأنها استحيت من تسرعها الى تهمتهِ . ثم اتى النعمان فحيّـاهُ واكرمهُ فعاد ونزل على اخيها فتطلعت اليه نفسها وكان جميلاً ، فارسلت اليه أن اخطبني ان كان لك اليّ حاجة . فخطبها وتزوجها وسار بها الى قومهِ .

يضرب : لمن يتكلم بكلام ويريد بهِ شيئاً غيرهُ .

●

٣ — « بَعْدَ اللّتيّا والتي »

اصله : ان رجلاً من جديس تزوج امرأةً قصيرة فقاسى منها الشدائد ، وكان يعبّر عنها بالتصغير ، فتزوج امرأة طويلة فقاسى منها ضعف ما قاسى من الصغيرة ، فطلقها وقال : بعد اللتيا والتي « اي الداهية الكبيرة والصغيرة » لا اتزوج ابداً .

يضرب : لخطإ التدبير في المعيشة .

●

٤ — « أَبْطَأُ من فِنْد »

اصلهُ : ان فند صاحب عائشة بنت سعد بن ابي وقّاص

ارسلتهُ عائشة ذات يوم ليأتيها بشملة نار من بيوت الجيران . فوجد قوماً ذاهبين الى مصر فتبعهم من فورهِ واقام هناك سنة ثم قدم ، ولما دخل الحي اخذ ناراً وجاءَ يعدو الى بيت عائشة ، فعثر بحجر هناك ، وتبددت النار التي كان قد اتى بها ، فقال : تعست العجلة ! وفيه يقول الشاعر :

ما رأينـــا لغرابٍ مثلاً
ان بعثناهُ يجيءُ بالمِشملَهْ

غيرَ فندٍ ارسلتـهُ قابساً
فثوى حولاً وسبَّ العَجَلَه

والمشملة كساء يُتدثَّر بهِ . وغراب اسم رجل ارسلوهُ ليأتيهم بها فابطأ . فقال بعضهم البيتين مشبهاً اياه بفند هذا المذكور .

يضرب : في الابطاء بالعمل .

●

٥ — « أتبعِ الفَرَسَ لجامَها والناقةَ زِمامَها »

اصلهُ : ان خوار بن عمرو اغار على حي عمرو بن ثعلبة الكلبي وكان غائباً ثم حضر فتبعهُ ولحقهُ قبل ان يصل الى ارضهِ . فقال عمرو : ردَّ عليَّ اهلي ومالي . فردهما عليه فقال : ردَّ عليَّ

قياني. فردَّ قينتهُ الرائعة وحبس ابنتها سلمى فقال لهُ عمرو حينئذٍ: ويحك يا ابا قَـبيصَة ! اتبعِ الفرسَ لجامَها .

يضرب : للرجل يؤمر بردّ الصنيعة واتمام الحاجة .

●

٦ — « تجاوزتَ شُبيثاً والأحَصّ »

شُبيث ماء لبني الاضبط ببطـن الجُريب . والاحص موضع هناك .

اصلهُ : قالهُ جساس لكليب حين طعنهُ ، فقال كليب : اغثني بشربة ماء . فقال : تجاوزت شُبيثاً والاحص . يعني ليس حين طلب الماء .

يضرب : لمن يطلب شيئاً في غير وقتهِ .

●

٧ — « تُكْلُ أرْأمَها ولداً »

اصلهُ : من قول بَيْهَس الملقب بنعامـة لأمّهِ حين رجع اليها بعد اخوتهِ الذين قُتلوا . وكان من حديثـهِ انهُ كان سابع سبعة اخوةٍ من بني فَزارة بن ذبيان ، فاغار عليهم ناسٌ من اشجع بينهم وبينهم حربٌ وهم في ابلهم فقتلـوا منهم ستة وبقي بيهَس وكان يحمق وهو اصغرهم فارادوا قتلهُ . ثم قالوا : وما

تريدون من قتل هذا ؟ يحسب عليكم برجل ولا خير فيهِ . فتركوه فقال : دعوني اتوصل معكم الى الحي فانكم ان تركتموني وحدي اكلتني السباع وقتلني العطش . ففعلوا فاقبل معهم . فلما كان من الغد نزلوا فنحروا جزوراً في يومٍ شديد الحرّ فقالوا : ظللوا لحمكم لئلا يفسد . فقال بيهس : لكن بالاثلات لحم لا يُظلل ، يريد لحم اخوتهِ المقتولين ، فذهبت مثلاً . فلما قال ذلك قالوا : انهُ لمنكرٌ ! وهموا بقتلهِ ثم تركوهُ وظلوا يشوون من لحم الجزور ويأكلون فقال احدهم : ما اطيب يومنا واخصبهُ ! فقال بيهس : لكن على بَلْدَح قومٌ عَجْفى ، يريد على المكان الذي يقال لهُ بلدح قوم ضعفاء وهم اخوتهُ ، فارسلها مثلاً . ثم انشعب طريقهم فاتى امهُ فاخبرها الخبر . قالت : فماذا جاءني بك من بين اخوتك ؟ فقال بيهس : لو خُيّرتِ لاخترتِ ، فذهبت مثلاً . ثم انها عطفت عليه ورقت لهُ فقال الناس : لقد احبت ام بيهس بيهساً . فقال : ثكلتْ ارأمها ولداً ، اي عَطَفها على ولدٍ ، فارسلها مثلاً .

يضرب : للرجل يحفظ خسيس ما لديهِ بعد فقد النفيس .

●

٨ — « جاءَ ابوها برُطَب »

اصلهُ : من قول شيهم بن ذي النابَين العبدي ، وكان فيه فشل وضعف رأي ، فاتى ارض النُبيط في نفرٍ من قومه فهوي

جاريةً نُبيطية حسناء فتزوجها فنهاهُ قومهُ ولاموهُ . ثم اتى بها قومهُ وما فيهم الا ساخرٌ منه لائمٌ لهُ ، فلما رأى ذلك انشأ يقول :

أَلم تَرَني ألامُ على نكاحي
فتاةً حبها دهراً عناني

رمتني رميةً كلمت فؤادي
فأوهى القلبَ رميةُ من رماني

فلو وَجَد ابن ذي النابَين يوماً
باخرى مثل وجدي ما هجاني

ولكن صدَّ عنهُ السهم صدّاً
وعن عرضٍ على عمدٍ اتاني

فكفوا عنه . ثم زارهُ ابوها برطبٍ وتمرٍ فاعجب شيهم حلاوتهُ فخرج الى نادي قومهِ وقال :

ما مراءُ القوم في جمع الندى
ولقد جاء ابوها برُطَب

يُضرب : لمن يرضى باليسير الحقير .

٩ — « جَوِّعْ كلبَكَ يَتْبَعْكَ »

اصلهُ : اول من قالهُ ملك من ملوك حمير كان عنيفاً على اهل مملكتهِ يغصبهم اموالهم ويسلبهم ما في ايديهم . وكانت الكهنة تخبرهُ انهم سيقتلونهُ فلا يحفل بذلك . وان امرأتهُ سمعت اصوات السؤال فقالت : اني لأرحم هؤلاء لما يلقون من الجهد ونحن في العيش الرغد ، واني لأخاف عليك ان يصيروا سباعاً وقد كانوا لنا اتباعاً . فرد عليها : جوع كلبك يتبعك ، وارسلها مثلاً . فلبث بذلك زماناً ثم اغزاهم فغنموا ولم يقسم فيهم شيئاً . فلما خرجوا من عندهِ قالوا لاخيه وهو اميرهم : قد ترى ما نحن فيه من الجهد ونحن نكره خروج المُلك منكم اهل البيت الى غيركم ، فساعدنا على قتل اخيك واجلس مكانه . فاجابهم الى ذلك فوثبوا عليه فقتلوهُ ، فمرَّ بهِ عامر بن جذيمة فتذكر قولهُ « جوع كلبك يتبعك » فقال : ربما اكل الكليب مؤدبه اذا لم ينل شبعهُ ، فارسلها مثلاً .

يُضرب : في معاشرة اللئام وما ينبغي ان يُعاملوا به .

●

١٠ — « حالَ الجَرِيضُ دونَ القَرِيض »

حال منع . والجريض الغصة من الجَرَض وهو الريق يغصُّ بهِ . والقريض الشعر .

اصلهُ : ان رجلاً كان لهُ ابنٌ نبغ في الشعر فنهاهُ ابوهُ عنه فجاش بهِ صدرهُ ومرض حتى اشرف على الهلاك فاذن لهُ في قول الشعر فقال المثل . اي ان غصة الموت حالت بينهُ وبين قول الشعر . وقيل انهُ لعبيد بن الابرص قالهُ للمنذر بن ماء السماء لما اراد قتلهُ . فقال لهُ : انشدني من قولك . قال : حال الجريض دون القريض .

يضرب : للامر يُقدر عليه اخيراً حين لا ينفع . ويضرب لامرٍ يعوق دونهُ عائق .

●

١١ — « حَميمُ المرءِ واصلهُ »

اصلهُ : ان اول من قال ذلك الخنابس بن المقنّع وكان سيداً في زمانهِ . وان رجلاً من قومهِ يقال لهُ كلاب بن فارع كان في غنمٍ له يحميها ، فوقع فيها ليثٌ ضارٍ وجعل يحطمها ، فانبرى كلاب يذب عنها فحمل عليهِ الاسد فخبطه بمخالبهِ خبطةً فانكبّ كلاب وجثم عليه الاسد فوافق ذلك من حالهِ رجلان : الخنابر بن مرّة وآخر يقال لهُ حوشب .

وكان الخنابر حميم كلاب فحاد عنهُ لقريبهِ وخذلهُ واعانهُ حوشب فحمل على الاسد وهو يقول :

أعنتُـهُ اذ خَذلَ الخنابرُ
وقد علاهُ مُكفَهِرٌّ خـادرُ

هرامسٌ جَهْمٌ لهُ زمـاجرُ
ونابهُ حرداً عليـهِ كاشرُ

ابرُزْ فـاني ذو حسامٍ حاسرُ
اني بهـــذا ان قتلت ثابرُ

فعارضهُ الاسد وامكن سيفه من حضنَيهِ فمرَّ بين الاضلاع والكتفين فخرَّ صريعاً . وقام كلاب الى خوشب وقال : انت حميمي دون الخنابر .

وانطلق كلاب بخوشب حتى اتى قومهُ وهو آخذٌ بيد خوشب يقول : هذا حميمي دون الخنابر . ثم هلك كلاب بعد ذلك ، فاختصم الخنابر وخوشب في تركهِ فقال خوشب : انا حميمهُ وقريبهُ . فلقد خذلتَهُ ونصرتُه . وقطعتَهُ ووصلتُـهُ . وصمتَ عنـــه واجبتُهُ . واحتكما الى الخنابس فقال : وما كان من نصرتك اياه ؟ فقال :

اجبتُ كلاباً حين عرَّد إلفـهُ
وخلاَّهُ مكبوباً على الوجه خنبرُ

فلمّا دعاني مستغيثاً اجبتهُ
عليهِ عبوسٌ مكفهرٌّ غضنفرُ

مشيت اليهِ مشيَ ذي العزّ اذ غدا
واقبل مختالَ الخطى يتبخترُ

فلمّا دنا من غرب سيفي حبوتُهُ
بابيضَ مصقولِ الطرائق يَزْهَرُ

فقطّع ما بين الضلوع وحضنهِ
الى حضنه الثاني صفيحٌ مذكّرُ

فخرّ صريعاً في التراب معفّراً
وقد زار منهُ الارضَ انفٌ ومِشْفرُ

فشهد القوم ان الرجل قال : هذا حميمي دون الخنابر. فقال الخنابس عند ذلك : حميم المرء واصلُهُ . وقضى لحوشب بتركهِ وسارت كلمتهُ مثلاً .

يضرب: للرجل يعجب باهله . وللقوم يمدحون اخاهم ويعجبون به . ومثلهُ قول العامة : ما يمدح العروس الا اهلها .

❁

١٢ — « خُذْ من جِذْع ما أَعْطَاكَ »

اصله : جذع اسم رجل . يقال لهُ جذع بن عمرو الغسّاني.

وكانت غسان تؤدي كل سنة الى ملك سليح دينارين من كل رجل . وكان الذي يلي ذلك سبطة بن المنذر السليحي ، فجاءَ سبطة الى جذع يسألهُ الدينارَين ، فدخل جذع منزلهُ ثم خرج مشتملاً على سيفهِ فضرب بهِ سبطة حتى برد ثم قال : خذ من جذع ما اعطاك .

وامتنعت غسّان من هذه الاتاوة بعد ذلك .

يُضرب : في اغتنام ما يجود بهِ البخيل .

•

١٣ — « خُذهُ ولو بِقُرْطَيِ مارِيَهْ »

اصلهُ : هي مارية بنت ظالم بن وهب . واختها هند الهنود امرأة حجر آكل المرار الكندي وهي ام ولد جفنة . يقال انها اهدت الى الكعبة قرطيها وعليهما درّتانِ كبيضتي حمام لم يرَ الناس مثلهما ولم يدروا ما قيمتهما .

يُضرب : في الشيء الثمين . اي لا يفوتنّك باي ثمنٍ يكون .

•

١٤ — « ذكّرَني فُوكِ حمارَيْ اهلي »

اصلهُ : ان فتى خرج يطلب حمارين ضالّة لهُ فرأى امرأةً

مُتَنَقِّبةً جميلةً في النقاب فاعجبتهُ حتى نسي الحمارَين . فلم يزل يطلب اليها حتى سفرت لهُ فاذا هي فوهاء ، فحين رأى اسنانها ذكر الحمارين فقال ذلك . وخلا عنها وانشأ يقول :

ليتَ النقابَ على النساء محرَّمٌ
كي لا تغرَّ قبيحةٌ انسانا

يضرب : للمغرور يستبصر بعد غفلتهِ فيرعوي .

●

١٥ — « ذَكَّرتَني الطعنَ وكنتُ ناسيا »

اصلهُ : من قول رُهيم بن حزن الهلالي . وكان انتقل باهلهِ ومالهِ من بلدهِ يريد بلداً آخر ، فاعترضهُ قوم من بني تغلب فعرفوهُ وهو لا يعرفهم ، فقالوا لهُ : خلِّ ما معك وانجُ . قال لهم : دونكم المال ولا تعرضوا للحَرَم . فقال لهُ بعضهم : ان اردت ان نفعل ذلك فألقِ رمحك . فقال : وان معي رمحاً ، فشدَّ عليهم وجعل يقتلهم واحداً بعد واحد وهو يقول :

ردُّوا على اقربها الاقاصيا
انَّ لها بالمشرفيِّ حاديا
ذكرتني الطعن وكنت ناسيا

يضرب : في تذكر الشيء بغيرهِ .

●

١٦ — « رُبَّ رَمْيَةٍ من غَيْرِ رامٍ »

اي رب رميةٍ مصيبةٍ حصلت من رامٍ مخطىءٍ .

اصله : من قول الحكم بن عبد يغوث المنقري ، وكان ارمى اهل زمانه ، فانهُ آلى يميناً ليذبحنَّ على الغبغب مهاةً ، فحمل قوسه وكنانته فلم يصنع يومه ذلك شيئاً ، فرجع كئيباً حزيناً وبات ليلتهُ على ذلك ، ثم خرج الى قومهِ فقال : ما انتم صانعون؟ فاني قاتل نفسي اسفاً ان لم اذبحها اليوم . فقال له اخوهُ الحُصين : يا اخي اذبح مكانها عشراً من الابل ولا تقتل نفسك . قال : لا واللاتِ والعُزَّى لا اظلم عاثرة واترك النافرة . فقال ابنهُ المطعم : يا ابتِ احملني معك ارفدك . فقال لهُ ابوهُ : وما احملُ من رعش ، وهل جبان فشل ؟ فضحك الغلام وقال : ان لم ترَ اوداجها تخلط امشاجها فاجعلني ودّاجها . فانطلقا فاذا هما بمهاةٍ فرماها الحكم فاخطأها ، ثم مرَّت بهِ أُخرى فرماها فاخطأها ايضاً ، فقال : يا ابتِ اعطني القوس ، فاعطاهُ فرماها فلم يخطئها . فقال ابوهُ : رب رميةٍ من غير رامٍ .

يضرب : للمخطىء يصيب احياناً .

●

١٧ — « رُبَّ كلمةٍ تقولُ لصاحبها دَعْني »

اصلهُ : ان ملكاً من ملوك حمير خرج متصيداً ومعهُ نديمٌ

لهُ كان يقربهُ ويكرمهُ، فاشرف على صخرةٍ ملساء ووقف عليها فقال لهُ النديم: لو ان انساناً ذُبح على هذه الصخرة الى اين كان يبلغ دمهُ؟ فقال الملك: اذبحوهُ عليها ليرى دمهُ اين يبلغ. فذُبح عليها.

فقال الملك: رب كلمةٍ تقول لصاحبها دعني.

يُضرب: في النهي عن الإكثار مخافة الإهجار.

❁

١٨ — «زُيِّنَ في عين والدٍ وَلَدُ»

اصلهُ: مرَّ اعرابيٌّ ينشد ابناً لهُ فقيل لهُ: صفهُ لنا. فقال: دُنينير. قال فمضى فجاءَ بجُعَل في عنقهِ فقيل لهُ: لو قلت هذا لدللناك عليهِ. قال فانشدنا:

نعم ضجيعُ الفتى اذا برد اللي ـ ـلُ سحيراً وقفقف الصُرَدُ
زيَّنهُ الله في الفؤاد كما زُيِّنَ في عين والدٍ ولدُ

يضرب: في عُجب الرجل برَهْطهِ وعِترتهِ.

❁

١٩ — «أَزُورُ أَحمائي ليَعْرفوني»

اصلهُ: من قول امرأةٍ خرجت الى احمائها في اسبوعها فأنَّبتْ على خروجها فقالت ذلك كأنها تهدِّدَتْهم وتهزَّأت بهم.

يضرب: لمن حُذِّر فلم يَحْذَرْ.

❁

٢٠ — « سَبَقَ السيفُ العَذَلَ »

اصلهُ : لضبّة بن أُدّ بن مُضَر . وكان لهُ ابنانِ سعد وسعيد خرجا في طلب ابلٍ لهما فتفرّقا . فوجدها سعد فردها ومضى سعيد في طلبها فلقيه الحارث بن كعب . وكان على الغلام بُردان فسألهُ الحارث اياهما فأبى عليه فقتلهُ واخذهما . فكان ضبة اذا امسى ورأى تحت الليل سواداً قال: « أسعد ام سعيد؟ » فذهب قولهُ مثلاً . يضرب في النجاح والخيبة . ثم ان ضبة حجّ فوافى عكاظ فلقي بها الحارث بن كعب وعليهِ بُردا ابنهِ سعيد فقال لهُ : هل انت مخبري ما هذانِ البردان؟ قال: بَلى، لقيت غلاماً هما عليه فسألتهُ اياهما فابى فقتلته واخذتهما . فقال ضبة : بسيفك هذا؟ قال: نعم . قال : اعطنيه انظر اليه فاني اظنهُ صارماً . فاعطاهُ الحارث سيفه فلما اخذهُ من يدهِ هزّه وقال : « الحديث ذو شجون . » ثم ضربهُ بهِ حتى قتلهُ فقيل لهُ : ياضبة أفي الشهر الحرام؟ فقال: سبق السيف العَذَل . وهو من سارت عنه هذه الامثال الثلاثة .

يضرب : لما قد فات . وللامر الذي لا يُقدر على ردّهِ .

٢١ — « إستَنَّتِ الفِصَالُ حتّى القَرْعَى »

المعنى : استنّ الفصيل اذا جرى في نشاطهِ على سننهِ في جهةٍ

واحدة. والفصيل ولد الناقة اذا فُصل عن امهِ، وجمعهُ فصال وفصلان. والقرعى جمع قريع مثل مرضى ومريض، وهو الذي بهِ قَرَع وهو بثرٌ ابيض يخرج بالفِصال.

يُضرب: للذي يتكلم مع من لا ينبغي ان يتكلم بين يديهِ لجلالة قدرهِ.

ويُضرب للذي يفعل شيئاً ليس باهلٍ لفعلهِ.

❁

٢٢ — « شاكِهْ أَبَا يَسَارِ »

اصلهُ: ان رجلاً كان يعرض فرساً لهُ على البيع. فقال له رجل اسمهُ أبو يَسار: أهذه فرسك التي كنتَ تصيدُ الوحشَ عليها؟ فقال صاحب الفرس: شاكهْ ابا يَسَارِ. يعني اقصد في مدحك وقارب الموصوف وشابههُ.

يضرب: لمن يبالغ في وصف الشيء.

❁

٢٣ — « شَعَبَتْ قَوْمي شَعُوبُ »

المعنى: شعبت فرّقت. وشعوب اسم للمنية لانها تشعّب بين الناس اي تفرّق.

يضرب: عند تفرق القوم.

❁

٢٤ — «صَرَّحَ المَحْضُ عنِ الزَّبَدِ»

المعنى : صرّح بيّن . وامرٌ صُراح اي منكشف ظاهر . والصريح من اللبن المحض الخالص الذي لا رغوة فيهِ . ثم قالوا لكل شيء خالص صريح .

يضرب : للامر الذي انكشف وتبيّن .

❁

٢٥ — « صَفْقَةٌ لم يَشْهَدْها حاطِبٌ »

اصله : لحاطب بن ابي بَلْتَعَة . وكان حازماً خبيراً . اذا باع بعض قومه واشترى جعل ذلك على يدهِ لئلا يُغبن فيهِ . فباع بعض اهلهِ بيعةً ليست عن يدهِ فغُبن فيها فقيل : هي صفقة لم يشهدها حاطب .

يُضرب : للامر يغيب عنهُ البصير بهِ ، فيجري على غير وجههِ .

❁

٢٦ — « ضَرَبَ أخماساً لِأسْداسٍ »

المعنى : ضرب بيّن واظهر . والاخماس والاسداس هما من اظماءِ الإبل . والاصل فيهِ ان الرجل اذا اراد سفراً بعيداً عوّد إبلهُ ان تشرب خمساً ثم سدساً حتى اذا اخذت في السير صبرت

عن الماء . ومعنى المثل هنا رقّى ابلهُ من الخمس الى السدس .

يُضرب : للمكار يُظهر شيئاً ويُريد غيرهُ .

٢٧ — « ضِغْثٌ على إبّالَة »

المعنى : الابالة الحزمة من الحطب . والضغث قبضة من حشيش ذات رطب ويابس ومعناهُ بليّة على اخرى .

يُضرب : لمن حمّلك مكروهاً ثم زادك عليه .

٢٨ — « اطْرُقِي ومِيشِي »

المعنى : اصلحي وافسدي ولا يكون فعلكِ كلهُ فساداً . والطرق ضرب الصوف بالمطرقة او العصا ، والميش خلط الشعر بالصوف او خلط الصوف الحديث بالصوف العتيق .

يُضرب : لمن يخلط في كلامهِ بين خطإٍ وصواب .

٢٩ — « أطْرِق كَرَا إنّ النَعَامَةَ في القُرَى »

المعنى : اطرق اي غضّ من اطراق العين وهو خفض النظر . والكَرَا من الكَرَوان وقيل مرخمهُ ، وهو طائر شبيه البطة لا ينام بالليل فسمّي بضدهِ من الكرى .

يُضرب : للذي ليس عندهُ غناء ويتكلم فيقال لهُ : اسكت وتوقّ انتشار ما تلفظ بهِ كراهة ما يتعقبهُ . وقولهم : ان النعامة في القرى ، اي تأتيك فتدوسك باخفافها .

❁

٣٠ — « ظُنُّوا بني الظَّنَّانَة »

الظنانة : المرأة التي تحدّث بما لا علم لها بهِ .

اصلهُ : ان رجلاً غاب لهُ اخٌ وبقي لهُ اخوةٌ مقيمون فاستبطأوهُ فقال احدهم : ظُنُّوا بني الظنّانة . فقال احدهم : اظنهُ لقيهُ ذو النِبالة الكثيرة فقتلهُ ، يعني القنفذ . وقال الآخر : اظنهُ لقيهُ الذي رمحهُ في استهِ فقتلهُ ، يعني اليربوع . وقال الآخر : اظنهُ لقيتْهُ جَحْمَةُ عينين فاكلتهُ ، يعني الارنب . وقال الآخر : اظنهُ اضطرهُ السيل الى جرثومةٍ فمات من العطش .

يُضرب : عند الحكم بالظنون .

❁

٣١ — « ظَمْأٌ قَامِحٌ خيرٌ من ريٍّ فَاضِح »

المعنى : القامح من الابل الذي قد اشتد عطشهُ . ويُروى ظمأٌ فادح ، والفادح المثقل . يقال فدحهُ الدَين اي اثقلهُ . والفضح انكشاف الامر وظهورهُ . يقال فضح الصبح اذا بدا .

يضرب : في القناعة وكتمان الفاقة .

ويضرب ايضاً في وجوب صون العرض وان احتُملت فيه المشاق . وتجنُّب الفضيحة وان قرن بها العيش البارد .

٣٢ — « عِندَ الصَّباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى »

المعنى : اذا سرى القوم بالليل قطعوا ارضاً كثيرة . والارض تطوى بالليل لمن يمشيها فاذا اصبحوا حمِدوا سراهم .

يضرب : للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة .

٣٣ — « عِشْ رَجَباً تَرَ عجباً »

اصلهُ : ان الحارث بن عبّاد طلّق بعض نسائهِ بعدما اسنَّ وخرف فخلف عليها بعدهُ رجل كانت تُظهر لهُ من الوجد ما لم تكن تظهرهُ للحارث ، فلقي الحارثَ فاخبره بمنزلتهِ منها ، فقال الحارث : عش رجباً ترَ عجباً .

يضرب : في تحوّل الدهر وتقلبهِ .

٣٤ — « غَمَرَاتٌ ثم يَنْجَلِينَ »

المعنى : الغمرات الشدائد . يقول اصبر في الشدائد فانها

تنجلي وتذهب ويبقى حسن اثرك في الصبر عليها .

يضرب : في احتمال الامور العظام والصبر عليها .

٣٥ — « غرّني بُرْدَاكَ من خَدَافِلي »

الخدافل هي الخلقان . ولا واحد لها .

اصلهُ ان امرأةً رأت على رجلٍ بُردين فتزوجتهُ طامعةً بيسارهِ فألفتهُ معسراً .

يضرب : لمن ضيّع مالهُ طمعاً بمال غيرهِ .

٣٦ — « في بَطْنِ زَهْمَانَ زَادُهُ »

اصلهُ : ان رجلاً نحر جزوراً فقسمها فاعطى كلبهُ « زهمان » نصيبهُ . ثم رجع زهمان ليأخذ ايضاً مع الناس فقال صاحب الجزور : في بطن زهمان زادهُ .

يُضرب : للرجل يطلب الشيء وقد اخذهُ مرةً .

٣٧ — « في الصيف ضيّعتِ اللبن »

اصلهُ : ان عمرو بن عُدَس تزوج دَخْتَنُوس بنت لقيط وكان شيخاً كبيراً فتركتهُ فطلقها في الصيف فتزوجها فتى جميل

الوجه ، واجدبت فبعثت الى عمرو تطلب منه حلوبةً فقال : في الصيفِ ضيعتِ اللبن .

يضرب : لمن يطلب شيئاً قد فوّتهُ على نفسهِ .

٣٨ — « قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قَوْلَ كُلِّ خَطِيبِ »

اصلهُ : ان قوماً اجتمعوا يخطبون في صلح بين حيين قتل احدهما من الآخر قتيلاً . فبينما هم في ذلك اذ جاءت أمةٌ يقال لها جهيزة او جُهينة فقالت ان القاتل قد ظفر بهِ بعض اولياء المقتول فقتلهُ . فقالوا : قطعت جهيزة قول كل خطيب ، اي قد استغني عن الخطيب .

يضرب : لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقةٍ يأتي بها .

٣٩ — « قد استَنْوَقَ الجَمَلُ »

اصلهُ : لطرفة بن العبد وقد كان عند بعض الملوك والمسيّب ابن عَلَس ينشد شعراً في وصف جمل ثم حوّلهُ الى نعت ناقة فقال طرفة : قد استنوق الجمل (اي صار ناقةً) .

يضرب : للمُخلِط الذي يكون في حديثٍ ثم ينتقل الى غيرهِ ويخلطه به .

٤٠ — « كلُّ فتاةٍ بأبيها مُعْجَبَة »

اصلهُ : من قول العَجْفاء بنت علقمة السَعْدِيّ . وذلك انها خرجت مع ثلاث نسوةٍ من قومها الى روضةٍ غنّاء ، فلما جلسنَ قلنَ : ايّ الرجال افضل؟ قالت احداهنّ : خيرهم الحظي الرضي غير الحظّال (اي المقتّر) ولا النبّال . وقالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ذو الحسب الصميم والمجد القديم . وقالت الثالثة : خيرهم السخي الوفي الرضي الذي لا يغير الحرة ولا يتخذ الضرة . وقالت الرابعة : وابيكنّ ان في ابي لنعتكنّ كرم الاخلاق والصدق عند التلاق ويحمدهُ اهل الرفاق . فقالت العجفاء عند ذلك : كل فتاةٍ بأبيها معجبة .

يضرب : في عُجْب الرجل برَهْطهِ وعشيرتهِ .

٤١ — « كَمُجِيرِ أمِّ عامر »

اصلهُ : ان قوماً كانوا في الصيد فطردوا الضبع حتى الجأوها الى خباء اعرابي فمنعهم منها وحلب لها وقدم لها ماءً وحليباً ، فولغت في ذلك حتى استراحت ، ثم نام الاعرابي فبقرت بطنهُ وشربت دمهُ وتركتهُ . فاقتفى اثرها ابن عمٍّ لهُ فادركها وقتلها وانشد ابياتاً في ذلك هي مغزى لما يضرب بهِ هذا المثل . فمنها :

ومن يصنعِ المعروفَ مع غيرِ اهلهِ
يلاقِ الذي لاقى مجيرُ امِّ عامرِ

❁

٤٢ — « لكلِّ قَوْمٍ في بَعيرِهِمِ خَبَرٌ »

اصلهُ : من قول عمر في العِلباء بن الهيثم السدوسي وقد وفَدَ عليه بهيئةٍ رثةٍ وكان دميماً اعور، فلما كلمهُ اعجب بجودة لسانهِ وحسن بيانهِ فقال : لكل قوم في بعيرهم خبر . اراد ان قومهُ لم يسوّدوهُ الا لمعرفتهم بهِ .

يضرب : في معرفة القوم بصاحبهم دون الاجانب .

❁

٤٣ — « ليس هذا بِشُبِّكِ فادرُجي »

المعنى : اي ليس هذا من الأمر الذي لكِ فيهِ حقٌّ فدعيهِ . ودرج مشى ومضى .

يضرب : لمن يرفع نفسهُ فوق قدرهِ . ولمن يتعرض الى شيءٍ ليس منه .

❁

٤٤ — « ما يَعرف قَطَاتَهُ من لطاتهِ »

القطاة الردف . واللطاة الجبهة .

يضرب : للاحمق الذي لا يعرف من حمقه مؤخّرهُ من مقدّمه .

●

٤٥ — « ما أَرْخَصَ الجَمَلَ لولا البِرّة »

اصلهُ : ان رجلاً ضلّ لهُ بعير فاقسم لئن وجدهُ ليبيعنّهُ بدرهم. فاصابهُ، فندم، فربط في عنقه هرّةً وجعل ينادي: الجمل بدرهم والهرة بالف درهم ولا ابيعهما الاّ معاً. فقيل المثل .

يضرب : في النفيس والخسيس يقترنان . ويضرب ايضاً : لمرغوب فيه معهُ مرغوبٌ عنه لا يفارقهُ .

●

٤٦ — « أَنْجِزْ حُرٌّ ما وَعَد »

اصلهُ : من قول الحارث بن عمرو لصخر بن نهشل بن دارم وذلك انهُ قال لصخر: هل ادلّك على غنيمةٍ على ان لي خمسها؟ فقال صخر: نعم. فدلّهُ على ناسٍ من اليمن فاغار عليهم بقومه فظفروا وغنموا، فلما انصرفوا قال لهُ الحارث: انجز حر ما وعد.

يضرب : في الوفاء بالوعد .

●

٤٧ — « النَقْدُ عِندَ الحَافِرَة »

الحافرة الارض التي حفرها الفرس بقوائمه . وقيل معناه

حافر الفرس . واصلهُ في الخيل ثم استعمل في غيرها . وقيل النقد عند الحافرة اي عند اول كلة . يقال فلان في حافرتهِ اي في امرهِ الاول .

يُضرب : في تعجيل قضاء الحاجة .

❁

٤٨ — « هذا الذي كنتِ تكتمين »

اصلهُ : قالهُ رجل لامرأةٍ ظن بها جَمَالاً تسترهُ فلما رآها خاب ظنهُ وقال: هذا الذي كنتِ تكتمين !

يضرب : لمن خالف ظنك في ما كنتَ راجياً لهُ .

❁

٤٩ — « هَوِّنْ عليكَ ولا تولَع باشفاقِ »

اي لا تكثر الحزن على ما فاتك من الدنيا .

يضرب : للتأسي والتصبر عند النائبة .

❁

٥٠ — « وافقَ شَنٌّ طَبَقَه »

اصلهُ : شَنٌّ رجل من دهاة العرب . وكان أَلزم نفسه ان لا يتزوج الا بامرأة تلائمه فكان يجوب في البلاد في ارتياد طلبته . فرافق في بعض اسفارهِ رجلاً الى بلاد ذلك الرجل وهما راكبان،

فقال لهُ شن : اتحملني أم احملك؟ فاستجهله الرجل . وانما اراد: اتحدثني ام احدثك لنميط عنّا كلال السفر . وقال لهُ وقد رأيا زرعاً مستحصداً : أأكل هذا الزرع ام لا ؟ وانما اراد: هل بيع فأكل ثمنهُ . ثم استقبلتهما جنازة، فقال لهُ شن : احيٌّ مَنْ على هذا النعش ام ميت؟ وانما اراد: هل لهُ عقب يحيا بهِ ذكرهُ . فلما بلغ الرجل وطنهُ وعدل بشنٍّ اليه سألتهُ بنتٌ لهُ اسمها طبقة عنه فعرّفها قصتهُ وجهّلهُ عندها فقالت : ما هذا الا فطن داهٍ . وفسّرت لهُ اغراض كلماتهِ وما حوتهُ من الدهاء والفطنة . فخرج الى شن وحكى لهُ قولها فخطبها . فزوجها اياه وحملها الى اهلهِ فقالوا : وافق شن طبقه .

يُضرب : للشيئين يتفقان .

●

٥١ — « أوْرَدَهَا سَعْدٌ وسَعْدٌ مُشْتَمِلْ »

اصلهُ : من قول مالك بن زيد مناة، عندما تزوج اورد الابل اخوهُ سعد فلم يحسن القيام عليها والرفق بها. فقال مالك:

اوردهـا سعدٌ وسعدٌ مُشتَمِلْ
ما هكذا يا سعد تُورَدُ الإبِلْ

يضرب : لمن قصّر في الامر .

●

٥٢ — « يَحْلُبُ بُنيٌّ واشدٌ على يديهِ »

اصلهُ : ان امرأة بدويةً احتاجت الى ابنٍ ولم يحضرها من يحلب لها شاتها او ناقتها، والنساء لا يحلبنَ في البادية لانهُ عار عندهنَّ انما يحلب الرجال، فدعت بنيّاً لها فاقبضتهُ على الخِلف وجعلت كفها فوق كفهِ فقالت: يحلب بُنيٌّ واشد على يديه. ويروى وأَضبُّ . والضب الحلب باربع اصابع .

يضرب : لمن يفعل الفعل وينسبهُ الى غيرهِ .

٥٣ — « يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْواء »

يضرب : للذي يُعرِضُ عن الامر كأنهُ لم يشعر بهِ . ويُضرب للمتهافت في الشيء. ويضرب ايضاً للسادر الذي يركب رأسهُ ولا يهتم لعاقبتهِ كالناقة العشواء التي لا تبصر امامها فهي تخبط بيديها كل ما مرَّت بهِ .

نختم الكتاب بقصيدة نشوان بن سعيد الحميري في اسماء الاذواء والاقيال نثبتها هنا تتمة للبحث عن حضارة العرب لما بها من الالفاظ الاختصاصية التي ترمز عن اسم كل ملك تولى على عرش حمير ، قال نشوان الشاعر :

الاذواء طبقتان : طبقة سمّاها الثامنة وهم ثمانية اذواء كانوا اقوياء ناهضوا حمير في ايام دولتهم ، والطبقة الثانية اذواء مستقلون. اما الاذواء الثامنة فقد ضمّنهم الحميري في هذه الأبيات :

أين الثامنةُ الملوكُ وملكُهم
ذلّوا لصرفِ الدهر بعد جِماحِ

ذو ثعلبانَ وذو خليلٍ ثم ذو
شَجَرٍ وذو جَدَنٍ وذو صِرْواحِ

او ذو مَغارٍ بعدُ او ذو جَرْفزٍ
ولقد محا ذا عَشْكلانٍ ماحِ

واما سائر الاذواء فأكبرهم ذو مراثد جدّ الناظم وهذا قوله فيهم :

او ذو مَراثِد جَدّنا القَيلُ ابنُ ذي
شجرٍ ابو الاذواء رحبُ السّاحِ

وبنوهُمُ ذو فَيْنَ ذو سَفَرٍ وذو
عمرانَ أهلُ مكارمٍ وسَماحِ

والقيلُ ذو ربيـــانَ من أبنائهِ
راحَ الحِمامُ اليـهِ بالرَّوّاحِ

أم أين ذو الرُّمحَينِ أو ذو يَرحَمٍ
سُقيـــا بكأسٍ للمنون ذَباحِ

أم أين ذو بَهَرٍ وذو يَزَنٍ وذو
نوشٍ وذو نوحٍ وذو الأنواحِ

ام اين ذو فيْقـانَ او ذو أصبحٍ
لم يَنجُ بالإمساء والإصْبَاحِ

أم أينَ ذو الشعْبَينِ أصبَح صَدْعُه
لم يَلتـئمْ لمثقّفِ الأقـداحِ

أو ذو حَوالٍ حِيلَ دونَ مَرامهِ
او ذو مَنَـاحٍ لم يبُحْ بمَراحِ

ام اين ذو غمدانَ أو ذو فائشٍ
او ذو رُعَيْنٍ لم يفُزْ بِفَـلاحِ

او ذو الكِناسِ وذو الكَلاعِ ويَحصُبٍ
اضحوا وهم للنائبـاتِ أضاحي

أم أين ذو أفنانَ أو ذو أقرَعٍ
او ذو الجَناح هِزَبْرُ كلِّ كِفاحِ

او ذو البَعير وذو ذَرانِحَ خانهُ
دهرٌ بُعيد اليسر كالذُلاّح

أم أين ذو بَيْنَينِ أو ذو أَغْبُرٍ
وبنو شراحيلٍ وآلِ شَراحِ

أم أينَ ذو ثابٍ وذو هَكَرٍ وذو
نَمِرٍ وذو ضُرّ وذو المِسْراح

أم أينَ ذو غَيْمانَ أو ذو شَودنَ
اللاهي ببيضٍ في النساء مِلاح

أم أينَ ذو شُهرانَ أو ذو ماورٍ
أضحت ديارُهُمُ بلا أقداح

أم أينَ ذو فهدٍ وشمألُ ابنهُ
فلقد عفاهم دهرُهُم بمَتاح

أم اين ذو شحطٍ وذو نبعٍ معاً
أو ذو مَلاحٍ لَهْوَ خيرُ مَلاح

أم أينَ ذو أوسانَ أو ذو مازنٍ
أم اين ذو التيجانِ والابراحِ ؟

وأما الأقيال فهم صغار الملوك الذين يقتصرون على مملكة صغيرة كالمحفد الكبير، أو مؤلفة من بضعة قصور، وفيهم طائفة من العياهل او الملوك لحضرموت، وقد ذكر الحميري بعضهم بقوله :

وعياهلٌ من حضرموتٍ من بني
اجمادَ ذي الاشبال آلُ صباحِ

والعزُّ من جَدَنٍ وإبنا مُرَّةٍ
وبني شبيبٍ والأولى المُنَّاح

وبني الهُنَيلِ وآلُ فهدٍ منهمُ
من كلِّ هشٍّ باندي مرتاح